في الأدب المقارن

التأثير في الآداب الأخرى
في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

من أقوى الدلائل على حيوية أدب أمة وصدق ترجمته عن الشاعر الانسانية احتفاء الأمم الأخرى به ، وعنايتها بدرسه ، وتأثرها بنتاجه ، واصطناعها وسائله ، واشتهار فحوله بينها ؛ فان الأدب إذا كان حياً صادق التعبير عن النفس الانسانية ، عميق النظرة في مشاهد الكون ، تخطى حدود أمته واجتاز حوائل اللغة والتقاليد والجنسية والبيئة ؛ تخطى ذلك إلى ساحة الانسانية التي تمحى عندها فوارق الزمان والمكان ، ويلتقي لديها أبناء الأمم المختلفة والأزمان المتباعدة ، وتمجد العبقرية الفنية حيثما نبتت

فحيوية الأدب وصدقه شرط أساسي لذيوعه وتأثر الآداب الأخرى به . وقد تجتمع إلى قوة الأدب الفنية الخالصة قوة أصحابه الحربية وسلطانهم السياسي ، فيكون ذلك عاملاً كبيراً مؤدياً إلى انتشار الأدب ؛ على أنه عامل إضافي لا يضير انعدامه . فالأدب واللغة هنا على طرفي نقيض : فلغة الأمة لا تذيع في الأمم الأخرى إلا تبعاً لارتفاع سلطانها السياسي ، مهما كان رقي اللغة ذاتها وصلاحيتها وتفوقها على اللغات الأخرى ، أو تخلفها عنها ؛ فلغات الرومان والعرب ، ثم الفرنسيين والانجليز ، لم تذع وتتخذ صبغة عالية إلا مصاحبة لامتداد نفوذ تلك الأمم ؛ أما الأدب فلا يذيع إلا لرقيه وصلاحيته وتفوقه في بعض النواحي ، سواء أساعده النفوذ السياسي أم أعوزه ؛ ذلك لأن اللغة وسيلة ضرورية من وسائل التعامل ، فلا بد من الالمام بلغة الأمة ذات الشأن العظيم في الحياة الدولية والاقتصادية ؛ أما الأدب فهو متعة وجدانية كمالية ، تقبل النفس منه ما وافق طبعها وترفض مالا تستسيغه ، ولو كان يمت إلى أوسع الأمم سلطاناً وأضخمها جيشاً

والأدب الاغريقي نسيج وحده في هذا الباب ، وهو مصداق كل ماتقدم ذكره ، ولم يؤثر أدب تأثيره في آداب الأمم ، ولا نال مثل ما نال من احتفالها : فهو أدب حي راق صادق ، ذاع في عهد سطوة أصحابه وفي عهد اضمحلالهم ، بل أثر في غالبيهم في ميدان الحرب والسياسة — الرومان — أبعد تأثير ؛ ثم عاد فبعث من مكمنه فأثر في نشأة الآداب الأوربية الحديثة ، بل على يديه درجت ، وفي حجره شبت ؛ وما زالت دراسته أحد فروع الثقافة العالية في الجامعات الأوربية ؛ ومن أجل دراسته والاستفادة من كنوزه تدرس اللغة الاغريقية على بعد ما بينها وبين اللغات الحديثة . أما اللغة ذاتها فتقلص ظلها منذ تقلص ظل السيادة اليونانية التي أظلت حوض البحر الأبيض الشرقي على عهد أثينا والاسكندر والبطالسة ، ودرست اللغة وبطل التخاطب بها حتى في بلاد اليونان ذاتها

وتتراوح درجة تأثير أدب أمة في آداب غيرها تبعاً لحالة المؤثر والمتأثر : فيكون الأثر شاملاً غامراً إذا كانت الهوة بينهما بعيدة ، بأن كان الأول عظيم الرقي والآخر بدائياً ساذجاً ، كما كان تأثير الأدب اليوناني في الأدب الروماني والآداب الأوربية الحديثة ، وكما كانت منزلة الأدب الفرنسي من الأدب الألماني في أوائل القرن الثامن عشر ؛ وقد يكون أثر أدب في غيره قاصراً على ناحية يتفوق فيها أو يمتاز بها ، كما كان تأثير قصة المغامرات الاسبانية في الأدب الانجليزي ، أو تأثير القصة الروسية في الآداب الأوربية العصرية ؛ وقد تحتفي أمة بدراسة أدب أمة أخرى إعجاباً به وتقديراً له ، دون أن يتأثر به أدبها تأثراً كبيراً ؛ وأغلب ما يكون ذلك إذا تماثل الأدبان في الرقي ، كما هي الحال بين كثير من الآداب الأوربية الحديثة التي قطعت مراحل متماثلة ، ووصلت إلى درجات من الرقي متقاربة ؛ وقد يتناكر أدبان ويتنابذان فلا يتأثر أحدهما بالآخر ، لشدة ما بينهما من تفاوت ، أو لاعتداد كل منهما بنفسه ، كما كان من ازورار الأدب العربي عن الأدب اليوناني ؛ وقد يُدرس الأدب في المعاهد وعلى أيدي العلماء والأدباء لمجرد البحث العلمي والتاريخ ، دون أن يكون له كبير أثر في آداب الأمم ، أو يكون لجمهور المتأدبين بصر به ، كما يدرس الأدب العربي في بعض الجامعات الأوربية اليوم

وكلا الأدبين العربي والانجليزي أثر في آداب الأمم الأجنبية ،

وبلغ من الرقى والخطر ما جعله جديراً باحتفائها ، واشتهر فحوله وأعلامه بينها ، وساهم بنصيب فى الأدب الانسانى العالمى . على أن الأدب العربى أعطى أكثر مما أخذ ، وأثر فى آداب الأمم الأجنبية أكثر مما تأثر بها ، بينما الأدب الانجليزى قد أخذ أكثر مما أعطى إلى اليوم ، وغنم من كنوز الأمم الأخرى أكثر جداً مما أودع تلك الكنوز ؛ وهذه فى الحقيقة ظاهرة مطردة فى تاريخى الأمتين لا فى أديبهما فقط . كانت الأمة العربية منذ ظهورها أمة إعطاء ، أعطت العالم ديناً وقوانين ولغة وأدبا ، ولم تأخذ إلا ما يتضاءل أمام ذلك كله من حضارة الفرس المادية ، ونظريات اليونان الفلسفية . وكانت الأمة الانجليزية أمة أخذ ، أخذت عن غيرها دينها ، وألفت من لغاتهم لغتها ، واشتقت من آدابهم أساليب أدبها وأشكاله ، وأغنت جزيرتها بخيرات الأقطار ، ولم تهد إلى العالم من مبتكراتها إلا نظامها النيابى . وعلى حين انزوت جزيرة العرب قابعة فى عزلتها بعد أداء رسالتها ، أثرت انجلترا بما قطفت من أطياب العالم المادية والأدبية التى اجتنتها على مدى العصور اجتناء ممتاز بصير خبير بما ينفع ، نابذ لما يذهب جُفاء

أثر الأدب العربى فى آداب كثير من الأمم الشرقية ، كالهنود والفرس والترك واليهود ؛ وما يزال ذلك التأثير ماثلاً فى الألفاظ والأساليب التى اقتبستها منه تلك الآداب ؛ وقد أدى إلى اتصال تلك الآداب بالأدب العربى اتصال العرب بتلك الأمم بالحرب والتجارة ، وبسط العرب سيادتهم عليهم حيناً ، ونشرهم دينهم بينهم ، فكانت سيادة العرب سبب انتشار اللغة العربية التى ظلت تدرس فى تلك الأقطار عصوراً طوالاً ، ولم تزل تدرس فى بعضها ؛ وكان انتشار الدين الاسلامى عاملاً آخر أطول بقاء ؛ فلما انتقلت السيادة إلى الفرس فالترك ضعفت مكانة اللغة العربية ، بينما ظل التفوق والتأثير للأدب العربى حيناً طويلاً لرقيه وتأخر الآداب الأخرى

ولم يَسمُ من تلك الآداب الشرقية إلى مضاهاة الأدب العربى إلا أدب الفرس . وقد كان بين هذين الأدبين وفحولها تمازج واتصال وتعارُض وتبادل عديم النظير بين أدبين آخرين : بدأ ذلك بانتصار العرب الحربى والدينى ، وكان أدبهم على جانب عظيم من التقدم ، بينما أدب الفرس بدائى لم يتعد بعدُ طور الطفولة ، ولم يستقل تماماً عن الدين ، لأنه — كأدب قدماء المصريين — ترعرع تحت ملكية شديدة الجبروت والأنانية ، وكهنوتية شديدة النيرة والأثرة ، فلم يكن يعدو الأقاصيص الساذجة والمواعظ ونوادر الملوك والآلهة ؛ أما الأدب العربى فكان قد ترعرع فى حرية البادية

فلما اتصل الفرس بالأدب العربى وأعجبوا به ، لم ينقلوا ماراءهم منه إلى أدبهم بل انتقلوا هم إليه ، فنثروا ونظموا فى لغة الدولة والدين والقرآن ، وكان منهم جملة من فحول الأدب العربى ، على حين كان أدبهم هم خالياً من الفحول على الاطلاق ؛ ثم نشأت طبقة منهم كانت تؤلف باللغتين وتساهم فى الأدبين ، وبذلك بدأ الأدب الفارسى فى الظهور وكان الشعر أسبق من النثر ؛ فلما استقلت فارس واستعادت سيادتها القومية فى ظل السامانيين والبويهيين ومن بعدهم ، نبغ فيهم رهط كبير من الشعراء والكتاب عكفوا على إحياء أدبهم وإثرائه ، متأثرين خُطى الأدب العربى فى المواضيع والأشكال الأدبية والأوزان الشعرية والألفاظ ، وأخذوا عن العربية ما كان قد داخلها إذ ذاك من محسنات وصنعة ؛ وبينما دخل الأدب العربى فى طور ركوده افتتح الأدب الفارسى عصر رقى رائع طويل ، ضارع فيه الأدب العربى وفاقه فى كثير من الأبواب ، كشعر الملاحم ووصف محاسن الطبيعة ، ونال بعض فحوله كالفردوسى والخيام من الشهرة العالمية ما قصر عنه فحولة العربية

وكان للأدب العربى أثر كبير فى آداب الأمم الغربية ؛ ولكن بينما تأثرت الآداب الشرقية بالأدب العربى الفصيح ، كان الأدب العربى العامى هو الذى أثر فى الآداب الغربية : فالأقاصيص الشعبية وضروب الأزجال التى فشت فى الأندلس كانت نواة الأدب الاسبانى الحديث الذى تمثل فى عهد النهضة الأوربية فى قصص سرفانتيس ، والذى أثر فى الأدبين الفرنسى والانجليزى أثراً مذكوراً فيما بعد ؛ وتلك الأقاصيص والأزجال انتقلت من أسبانيا إلى جنوب فرنسا ، حيث نشأ شعراء التروبادور الذين وضعوا اللبنة الأولى فى أساس الشعر الفرنسى الحديث . أضف إلى ذلك ما نقل من تلك الأشياء الى الأدب

الايطالى وأثر فى كتابات بوكاشيو وبترارك ودانتى ، وما تسرب الى الأمم الأوربية فى عهد الحروب الصليبية . هـذا إلى قصص ألف ليلة وليلة التى انتقلت إلى أوربا من عهد بعيد وترجمت الى لغاتها ، وكانت موضع اعجاب الأدباء واقتباسهم

وللأدب العربى أثر ثالث عظيم الخطر عديم النظير ، لم يتأت حتى للأدب اليونانى أن يأتى بمثله : ذلك هو حلوله محل غيره فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية ، حتى نسى أهل كل قطر من هاتيك ما كان له من أدب قبل ذلك ، وأصبح تاريخ الأدب فى كل أقليم منها يبدأ بعهد الجاهلية فى جزيرة العرب . والواقع أن الأدب العربى لم يَسُدْ تلك البقاع لمجرد قوته وحيويته ، وإنما تمكن من الأتيان بتلك المعجزة بفضل ما صاحَبه من ظروف وعوامل ، كقوة اللغة العربية ذاتها وكونها لغة الدين الجديد والدولة ، ثم السياسة الحكيمة التى سلكها العرب فى حكم الأقطار : فقد تركوا لها حرية العبادة والمعيشة ، وأشعروها مع ذلك بالنقص وانحطاط منزلتها عن منزلة الفاتحين أصحاب الدين والدولة ؛ فتسامحهم الدينى لم يستفز تلك الأمم الى مقاومة الدين الجديد ومعاندته ، كما قد كان يستفزها القهر والأرغام على اتباعه ؛ وشعورها الباطن بالنقص والانحطاط دفعها إلى التشبه بالقائمين بالأمر عليها والانغمار فى جلتهم ؛ ومن ثم انتشر الدين واللغة وحلا محل غيرهما ، وانتشر بانتشارهما الأدب العربى

فالأحوال كانت مهيأة فى الشرق مساعدة لانتشار الأدب العربى : لتفوقه وتفوق لغته على ما كان هناك من آداب ولغات ، وانتشار دين قومه وسيادتهم ، ومشابهة الأمم الشرقية للعرب فى الطباع إلى مدى ، وامتزاجها بهم فى أطراف الامبراطورية العربية . أما فى الغرب فلم يكن الأدب العربى الفصيح ليُلاق مثل هذا النجاح ، بل هو لم يلاق نجاحا ما ، ولم يصب إعجاباً قط ؛ وقد هرع اليه متأدبو الافرنج غير مرة يريدون الانتهال من مورده ، وارتدوا خائبين قانطين ؛ وبينما وجدوا فى الأدب الفارسى ما يترجمونه ويضنون به ضنهم بآثار آدابهم ، لم يجدوا فى مدائح المتنبى لسيف الدولة وأهاجيـه لكافور ، وتفنن بديع الزمان فى صوغ الأسجاع والنكات على لسان أبى الفتح ، ما يستحق عناء الدرس والترجمة ، أو يحث على الاعجاب والضنّ .

إنما تنقل الأمم من آداب غيرها ما يمت إلى الانسانية فى شتى بقاعها وعصورها بأوثق الأسباب ؛ أما المدح والذم والزخارف اللفظية التى إذا ترجمت تبخرت فلا تنفق فى غير لغتها وعصرها

ولقد كانت الآداب الغربية قبل عهد النهضة ناشئة تتلفت باحثة عن الأستاذ المرشد ، فلم تره فى الأدب العربى الفصيح ، لأنه لم يكن أدب شعب ومجتمع وحياة متجددة ، بل اختار لنفسه أن يكون أدب بلاط ، ونديم علية ، ورهين تقاليد لا تتغير ، واستبعد من حظيرته مناحى كثيرة من مناحى القول ، ومواضيع شتى من صميم الحياة والفن ؛ وإنما استفادت تلك الآداب بما وجدته فى الأدب العربى العامى من آثار الخيال الرائع ، والتصوير الصادق ، والتعبير المتعدد الأشكال عن الحياة الانسانية المتدفقة المتجددة ، فضلاً عما ينسم منه من روائح الشرق وبذخه وكنوزه وغرائبه ، تلك التى ما زالت من قديم تستهوى نفوس الغربيين وتثير أخيلتهم ، فأوسع الأوربيون ذلك الأدب العامى دراسة وترجمة ومحاكاة ، ثم لم يلبثوا أن اهتدوا إلى ضالتهم المنشودة فى الأدب اليونانى ، فعلُّوا من معينه ونهلوا

وقد قيل إن كوميدية دانتى الالـهية متأثرة برسالة الغفران ، وقصة ربنسون كروزو أوحت بها قصة حى بن يقظان ، وذلك بعيد : فلو أن الآداب الأوربية كانت تتأثر بالأدب العربى الفصيح لما اقتصر تأثرها على هذين المثالين الشاردين — على كون قصة حى بن يقظان أثراً فلسفياً لا أدبياً — وليس بين الكوميدية الالـهية وبين رسالة الغفران شبه سوى أن الجنة والنار مشاهدُ وقائعهما ، ولا بين روبنسون كروزو وحى بن يقظان تماثلٌ إلا انعزالهما فى جزيرة ، وتوفيرهما حاجاتهما بأنفسهما ؛ وكلتا الفكرتين بديهيتان يلوح أنهما تطرآن على الفكر الانسانى فى شتى العصور والأصقاع . وهل شىء أكثر بداهة وأقرب إلى الطبيعة من أن دانتى المتعصب الدينى فى عصر التعصب الدينى وفى وطن البابوية يلتفت الى العالم الآخر ويُجرى فيه حوادث مهزلته ؟ أو أن ديفو المغامر الأفاق فى عصر المغامرات البحرية ، وفى انجلترا البلد البحرى يتخذ بطلاً لقصته مخاطراً بحاراً ؟

أما الأدب الانجليزى فكان — كما تقدم — أقل من الأدب العربى تأثيرا فى الآداب الأجنبية ، وأكثر منه تأثراً بها : تأثر

من عهد النهضة بالأدب اليونانى والرومانى والفرنسى والايطالى والأسبانى ثم الألمانى ، وأخذ خير ما فى تلك الآداب من الأشكال الأدبية والمواضيع والأساليب ، وصاغها على النحو الملائم لطبائع أهله وعبقرياتهم الخاصة ، ومثّل كل ما أخذه وتقّاه ، حتى جاء الأدب الانجليزى مضاهياً لأحسن ما فى تلك الآداب إن لم يفقها جميعاً عمق فكرة وشمول نظرة وحرارة شعور وصدق عاطفة وبساطة بيان ، ونبغ فيه من الأعلام أمثال شكسبير وملتون وبيرون وسكوت مَن كان لهم مكان رفيع فى القارة ، وعُنى بدراستهم ، والاشادة بفضلهم أقطاب الآداب الأوربية ، أمثال هوجو وتين وسنت بيف ، وحوكيت قصائد بيرون وقصص سكوت ، ومُثلت روايات شكسبير فى مسارح المواسم الأوربية ، وساهمت انجلترا بنصيبها فى النهضة الرومانسية التى كانت حركة أدبيـــة دولية ساهمت فيها سائر الآداب الأوربية والأمريكية

على أن كل ذلك لا يكاد يتخطى حدود التقدير والاعجاب بذلك الأدب ، ولم يتعد ذلك إلى إحداث ثورة شاملة أو تطور خطير فى تلك الآداب ، ولم يؤثر الأدب الانجليزى فيها بعض ما أثرت هى فيـــه ، فهو قد جاء متأخراً عنها قليلاً ولحق بها فتشابه الجميع اليوم رقيا ، فهى فى غنى عن الأخذ عنه ، وهو لا يفاجئها بعناصر ليست فيها ، وهو وهى سواء فى الأخذ من الأدب اليونانى والبناء على أساسه واعتناق مبادئه التى دان بها فى تصوير الحياة وتحليل النفوس وعبادة الجمال

فالآداب الأوروبيـة اليوم ، بما فيها الأدب الانجليزى ، فرسا حلبـة واحدة ، متشابهة فى النشأة والتاريخ والمنهج ، وهى وإن كانت على اتصال وامتزاج دائبين ، أن ينتظر أن يكون تأثير واحد منها فى غيره تأثيراً بعيد المدى شاملاً غامراً ، كما كان تأثير الأدب اليونانى فى الأدب الرومانى ، أو تأثير الأدب العربى فى الأدب الفارسى ، فمثلُ هذا التأثير الشامل لا يكون إلا بين أدبين قد انفرجت بينهما مسافة الخلف ، وضرب حجاب العزلة بينهما دهراً ، كما هو الشأن اليوم بين الآداب الغربية فى مجموعها — ومن بينها الأدب الانجليزى — والآداب الشرقية فى مجموعها — ومن بينهـا الأدب العربى — فقد كان التدابر والتناكر سائدين بينهما عصوراً طويلة ، والأولى فى رقى مطرد ، والثانية فى تدهور مستمر ؛ فلما تلاقتا ورفع من بينهما حجاب العزلة أثرت الأولى فى الثانية ؛ وما تزال تؤثر تأثيراً هو أدنى إلى الثورة المطلقة أو الخلق من جديد

فالأدب الانجليزى قد بلغ من الرقى وصدق الرسالة واتساع الجوانب ما يبذ به الأدب العربى ، ونال من المكانة بين آداب الأمم أسماها ، وحاز من أدباء تلك الأمم أعظم التقدير والحفاوة ، وهى مكانة ستظل له دائما كما ظلت مكانة الأدب اليونانى بعد زوال دولته ، وهو خليق أن يؤثر فى آداب الأمم التالية أثراً بعيداً ؛ أما إذا ووزن بين تأثيره فى الآداب الأخرى الى اليوم وبين تأثير الأدب العربى فى الآداب المعاصرة له ، فان الأدب العربى يرجحُهُ كثيراً . بيد أن الأدب العربى قد أدى رسالته فى ذلك الصدد ولم يعد صالحاً لأن يؤثر فى آداب الأمم الأخرى حتى يتجدد ويتأثر هو ذاته بغيره من الآداب ، ويفتتح فى تاريخه فصلاً جديداً غير الفصل السالف

فخرى أبو السعود

رسالة المنـــبر
الى الشرق العربى

بقلم الأستاذ فليكس فارس

خطب وأبحاث وقصائد ترمى إلى تعزيز الرابطة العربية وإقامة حضارتهـا وإصلاح أسرتها

فصول عن فلسفة جبران خليل جبران وحياته

ورد على كتاب الأستاذ نعيمة فيه

يقع الكتاب فى ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير ، وهو مصدر بمقدمة من قلم الأستاذ الكبير عميد الرابطة العربية محمود بسيونى رئيس مجلس الشيوخ ، وبكلمات الأعلام المغفور له محمد رشيد رضا ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، ومصطفى صادق الرافعى